الأب بسّام (آشجي)*

رؤى إلى حركة الشبيبة الأرثوذكسيّة في عيدها الستّين

تباركت الكنيسة الجامعة يوم انطلقت حركة الشبيبة الأرثوذكسيّة، التي أنتمي إليها بفخر، لتقوم بنهضة روحيّة في الكنيسة الأنطاكيّة الرسوليّة المقدّسة. فحقّقت، منذ ستّين سنة حتّى الأن، إنجازات عظيمة على مستويات الحياة الكنسيّة، والاجتماعيّة، والفكريّة، والحضاريّة كافّة. فبدافع هبوب الروح القدس قام المؤسّسون، ومن بعدهم كلّ من انتمى إلى هذا التيّار، بإيقاظ الالتزام العميق في الإيمان المسيحيّ وممارسته، وبمحبّة الكنيسة المحلّيّة التي تحمل تقليدًا أصيلاً في الحياة بالمسيح. لم يكن هدف الحركة إنشاء مؤسّسات، كجامعة وأديرة ودور نشر ومدارس ومراكز خيريّة وثقافيّة واجتماعيّة، وقد أنشئت وأبدعت في ما أنجزت؛ بل كان الهدف، كما يقول الرائد في تأسيسها المطران جورج (خضر)، في كلمته لمناسبة عيد الحركة هذه السنة: «هو اقتناع جماعة من الناس بأنّ اللّه يحبّها وبأنّه يظهر محبّته لها في هذه الكنيسة... وبأنّ يسوع يفتقد كنيسته».

انطلاقًا من هذا الهدف، وببساطة إنجيليّة، ورغم أنّني كاثوليكيّ، أتيت الحركة، ربّما صدفة أو بدافع من الروح القدس ونداء مقدّس، وتشرّفت عندما منحتني العضويّة فيها. فلم أجد تعارضًا بين كينونتي الكاثوليكيّة الشرقيّة، وانتمائي الحركيّ الأرثوذكسيّ، خصوصًا عندما شجّعني في ذلك المغفور لهما المطرانان نافيطوس (إدلبي) وإلياس (يوسف). حيث كانا يشاهدان ويشهدان، ولو في الرجاء، أنّ هذه الازدواجيّة سوف تتبدّد يوم تنقشع غيوم الانقسام. وكأنّي بهما، في هذا التشجيع والمباركة، يمنحاني «تدبيرًا كنسيًّا» خاصًّا، يدعواني من خلاله إلى استباق تذوّق «الشركة» المرجوّة في تتويج حمل صليب الانقسام واكتمال ما نقص من آلام المسيح. فحملته معهما بغبطة، ومع كلّ من تمزّق في جسد السيّد السرّيّ، أمثال الطيّبيّ الذكر الأرشمندريت أنطون (فرح) والأخ اسكندر ورد، رحمة اللّه عليهما، وكبار أفاضل بعضهم بيننا اليوم، أطال اللّه بعمرهم.

أجل، لقد شعرت في حركة الشبيبة الأرثوذكسيّة بالمحبّة الإلهيّة لي في المسيح يسوع، وبمحبّتي للكنيسة جسده السرّيّ، ولو كان شديد التمزّق. وتتطوّر عندي هذا الشعور، فقرّرت التزامه بكلّ كياني؛ لعلّي أساهم، رغم حدودي، مع المسيح وبه، وبمن أحبّ وبادله الحبّ، في «افتقاد كنيسته». ونما معه فيّ ألم صليب كبوات الكنيسة الجريحة، ولا يزال. وامتدّت معه أيضًا رجاءات «الافتقاد» في القيامة والحياة الجديدة؛ وهذا ما تعلّمت تسميته في هذه التيّار بـ«النهضة».

* هذه الكلمة ألقاها الأب بسّام (آشجي) وهو كاهن في مطرانيّة حلب للروم الكاثوليك لمناسبة عيد الحركة الستّين في مركز حلب.

«النهضة» التي تدعو إليها الحركة، كما رأيتها، هي الشفافية بين الإيمان المحمول في الكنيسة الحيّة، المؤسّسة على العنصرة الحدث في «اليوم الخمسين»، وعلى عنصرة متجدّدة يحملها لنا تقليد عريق ممهور بدماء الشهداء وعبق القدّيسين؛ وبين الإيمان المعاش يوميًّا، الذي تنسجم فيه الرُكب الراكعة والعيون الخاشعة والقلوب المصلّيّة وصحوة «الذهن»، مع الخدمة والمصالحة والتضامن البنّاء والمساهمة في تحقيق إنسانيّة البشر وتأليههم.

«النهضة» التي تدعو إليها الحركة، كما رأيتها أيضًا، ليست أرثوذكسيّة في المفهوم الطائفيّ للكلمة. وإلا صارت الحركة طائفة، بالمعنى البغيض، داخل الكنيسة الأرثوذكسيّة، كما حدث يوم أراد «الإصلاح البروتستانتيّ» النهضة في كنيسة الغرب. لا شكّ في أنّ لهذا «الإصلاح»، في نشأته، معطياته التاريخيّة، التي تختلف عمّا هي عليه في نشأة الحركة الأرثوذكسيّة. «الروم الكاثوليك» في حلب، وفي دير البلمند، وفي أمكنة أخرى، كانت لهم، وفي نشأتهم أيضًا، تطلّعات نهضة. قد تكون المعطيات التاريخيّة آنذاك حتّمت عليهم، وعلى «الروم الأرثوذكس» في آن، الاختيار القاسي بأن يصبحوا طائفتين توأمين! فهل نستطيع تاليًا أن نرجو في الأفق القريب، أو البعيد، عودة للكنيسة الواحدة بعد أن تغيّرت هذه المعطيات التاريخيّة؟ هل من علامات النهضة الأنطاكيّة المعاصرة وحدة كنيستها؟ عندما أقرأ التاريخ لا أجد في الكنائس الكاثوليكيّة الشرقيّة، وفي الكثير من جوانب نشأتها تحديدًا، سوى الرغبة في حركة نهضة. الظروف تغيّرت لمّا نشأت الحركة الأرثوذكسيّة، بحيث يمكن لحَمَلَة لواء «النهضة» الأنطاكيّة من بعث حياة الروح والالتزام الكنسيّ في واقع الإنسان المعاصر وما يحاكيه من شؤون وشجون، من دون إحداث طائفة جديدة. وبالمثل، منح المجمع الفاتيكانيّ الثاني الوعي للكنيسة الغربيّة في حمل لواء النهضة الكنسيّة من داخلها، وفي عمقها، ومن دون حاجة لمحنة الانقسام. وأظنّ أيضًا، أنّ ما حدث في خلقيدونية هو أمر مشابه لما أقول، ولقد دلّت الأبحاث اللاهوتيّة واللغويّة والتاريخيّة، على أنّ الأسباب الظاهرة في الخلاف كانت لفظيّة، وها هو في الأفق ما يدعو إلى التفاؤل في كمال الوحدة بين «الكنائس الشرقيّة القديمة» من جهة، أعني السريان والأرمن والأقباط، والكنائس الشرقيّة والغربيّة التي التزمت خلقيدونية من جهة أخرى، حيث العولمة كانت آنذاك هلّينيّة، ملكيّة تتبع الملك، وآفاق النهضة فيها لا يمكن أن تمرّ إلاّ عبرها.

من هذا المفهوم للنهضة أجدني باقيًا أبدًا حركيًّا أرثوذكسيًّا، إن بين الأرثوذكس أنفسهم، أو بين من أنتمي إليهم كنسيًّا، أو في الواقع الكنسيّ المتعدّد الطوائف، في حلب، أو في سائر أنحاء أنطاكية الذي فرض فيه المسيحيّون وجهًا للكنيسة الواحدة، ولو غير مكتمل.

الحركة علّمتني أنّني، مع كلّ المسيحيّين في أنطاكية الجريح، ننتمي إلى جسد المسيح السرّيّ، ولو تمزّق كثيرًا. إنّ المطران جورج (خضر)، في كلمته السابقة الذكر، رأى «أنّ الكنيسة دائمًا جماعة «مخربطة». ليس ثمّة من وقت في تاريخ الناس كانت الكنيسة عروسًا

متلألئة. لا في العصر الرسوليّ ولا في عصر الآباء ولا بعده. ولا في الزمن الذي كان فيه الاثنا عشر يحيطون بالسيّد، واحد منهم خانه وواحد جحده. الكنيسة دائمًا «مخربطة»، غير أنّ الذي هيّأها لتكون له عروسًا...، يتودّد إليها ويشدّها إليه».

جميعنا في أنطاكية الجريح نحتاج إلى توبة. جميعنا في أنطاكية الجريح نحتاج إلى نهضة. جميعنا، مع المطران جورج (خضر)، نعدُ يسوع أن نتركه يحتفل بعروسه في أنطاكية الجديدة، «مجيدة لا فساد فيها ولا غضن»، ولا تمزّق، «ولا شيء مثل ذلك».

لقد اختبر البيت الداخليّ للكنيسة الأرثوذكسيّة «النهضة»، بمساهمة الحركة، طيلة ستّين سنة، ولا حاجة لي في هذه العجالة إلى شواهد وأنتم أهل البيت. ما أراه في عيد الستّين هذا، أن تكثّف الحركة سعيها في طريق النهضة لاستعادة وحدة الكنيسة الأنطاكيّة المنشودة، رغم كثرة الطوائف فيها. لا بل أدعو الحركة مواصلة السعي النهضويّ من أجل وحدة الكنائس في المسكونة كلّها، ولمَ لا وهي التي خصّصت هدفين من مبادئها الستّة لذلك.

وإنّي أرى تاليًا، أنّ غبطة البطريرك أغناطيوس الرابع (هزيم)، بيقظته النبويّة الوديعة المعهودة، عندما استقبل قداسة البابا يوحنّا بولس الثاني في حجّه إلى الكنيسة الأنطاكيّة بدمشق العام الماضي، وقال له: «بطرس الذي أقام في أنطاكية أوّلا يستقبلكم...»، ومن عمق حصاد ستّة عقود نهضة مباركة، ساهم هو نفسه فيها بشكل أساس؛ أراه يفتح أفقًا جديدًا في مسيرة وحدة كنائس المسكونة. فيقدّم، برأيي، مفهومًا جديدًا عن «الخدمة البطرسيّة»، كان التاريخ قد غيّبه تمامًا لما حمل من كبوات وجراحات لكنيسة أنطاكية، مفهومًا مميّزًا عن ذاك الذي رأته روما. فإن كان بطرس، الذي في روما الحضارة والأمجاد، يرى خدمته تتمركز في قول السيّد له: «أنت الصخرة»، وتاليًا كانت «المركزيّة» هناك صخرة صلبة؛ بطرس، الذي في أنطاكية الجريح، لا يستطيع إلاّ أن يتمرّس بخدمة «تثبيت» إخوته، إذ يقول السيّد له: «ثبّت إخوتك». كم هم كثر إخوتك يا بطرس أنطاكية، هنا وهناك، في أنطاكية ذاتها أوّلاً، وفي المسكونة كلّها تاليًا، تلك التي أراد السيّد «اقتناصها» يوم العنصرة، كما نرتّل في طروباريّة العيد، التي أصبحت نشيد الحركة.

أدعوكم أيّها الأخوة والأخوات، من موقع متواضع، إلى تلمّس رؤى النهضة في العقود الستّة القادمة، وقد دخلنا الألفيّة الثالثة التي يُرجى منها أن تكون عصر مصالحات لا عصر صراعات، ولعلّ «الخدمة البطرسيّة الأنطاكيّة»، لو شقّت طريقها الشائك، تصبح نهضة جديرة بالاهتمام في بعث أنطاكية الجديدة، خادمة «للافتقاد السيّديّ» في «تثبيت» كنائس المسكونة ووحدتها.

ختامًا اسمحوا لي أيّها الأحبّة، أن أقدّم التهنئة لسيادة المطران بولس (يازجي) راعينا الجليل، وللأخ سمعان سعد رئيس المركز، وللآباء والكهنة والرهبان الأجلاّء، ولكم جميعًا، بهذا العيد الستّين. جدّده المسيح الناهض من الموت بتواصل انسكاب «النهضة» علينا، إلى أن تكتمل في ملء ملكوته، فنبلغ إلى ملء قامته، وكلّ عام وأنتم بخير. الربّ معنا. آمين.❑